مع ابن زيـــدون في قصـــيدتـــه الحكـمـيـــة

حسن معتوق

ابن زيدون، واحد من شعراء الأندلس البارزين، نبغ في عصر الخلافة فـــي الغـرب الإسلامي، وعرف بشعره في "ولادة" الشاعرة الأميرة بنت الوزير المســـتكفي، واشــتهر بالقصيدة المعروفة "أضحى التنائي"، وهي من عيون الشعر العربي، رقة وانسياب عاطفــة وصدق وجدان، حتى أن ابن نما الحلي في كتابه "مثير الأحزان" أورد قسماً منها على أنــه يصلح خاتمة لكتابه عن واقعة الطف، بما تحتوي تلك الأبيات المؤثرة من نفس حزين ينفـذ إلى القلوب نفاذ السمهري على حد تعبيره.

وقد أورد الخطيب جواد شبر في الجزء الثاني من أدب الطف قصيدة رائية علـى وزن البسيط للشاعر ابن زيدون، وهي قصيدة هاشمية يستهلها بالشــكوى والعتــاب لصــروف الزمان ويضمنها حكماً وعبراً يستخلصها ذو اللب والفكر من تجارب الحياة، ثم يتطـــرق إلى ذكر حوادث مهمة في تاريخ الإسلام، انتصر فيها أهل الجــور علــى أهــل العــدل انتصاراً آنياً، ولكنه حقق الخلود والعزة لأولئك الذين نفضوا أيديهم من هذه الحياة الزائلـــة ليحتلوا عرش الخلود ويتربعوا على أريكة المجد تحتضنهم قلوب شيعتهم ومحبيهم.

إلا أن الباحث في ديوان ابن زيدون لا يكاد يعثر على تلك القصيدة، بل يعثر على مـــا يشبهها وزناً وقافية، وكأن هذه الأبيات التي نوردها يتيمة، قد اجتزئت من الأصل، فجاءت مبتورة أو سلخت من الديوان، إذا يدلك نَفَسُ الشاعر على أنها من وحي وإلهام يقرّب بينها وبين شاعرنا هذا.

ودائماً تواجهنا مسألة نسبة بعض الأبيات من قصيدة أو بعض القصائد مـــن ديـــوان، وذلك حينما تأتي هذه المقطوعات لتعبر عن موقف ملتزم أو عقائدي لأحــد الشــعراء، لا يلتقي وموقف الديوان أو ناشره فيقتطع منه أبياتاً أو يحذف منه قصائد.

ولعلّ ذلك من آفات الشعر، فهو وحده بين الفنون ينفرد بتلك الآفة، إذ لا نجد مثيلاً لــها في سائر الفنون، فهل امتدت يد إلى منحوتة، أو لوحة فنية، أو قطعة موسيقية لتعمل فيـــها أهواءها حذفاً واقتطاعاً؟!

كم من الحقب مرت وما زالت "الجوكوندة" تحتفظ بتلك الابتسامة المحيرة لنقاد الفن التشكيلي، لم يغير الدهر من ملامحها شيئاً، وما زالوا يكتشفون الإبداعات المستمدة من تلك النظرة، منذ خمسة قرون.

أما الشعر، هذا الفن الذي وسيلته الكلمة، وهي أعظم أدوات الفن والتعبير، لم يستطع أن يحصن نفسه من التلاعب والعبث به، ولأن الشعر أكثر الفنون قدرة على الالتزام والتعبير عن الآراء والأفكار في وحدة تقرن الجمال إلى الموقف العقائدي الذي يحمل فكرة أو يستبطن رأياً أو ينقل إلى القارئ عقيدة أو مبدأ.

ولذلك فإن الشعر العربي يحتاج إلى إعادة قراءة ومراجعة أصول.

وهناك ظاهرة أخرى، هي أننا دائماً نواجه مع النقاد مسألة زيادة قصيدة أو انتحالها أو زيادة أبيات وانتحالها، ولم نجد النقد يطرح إلا فيما ندر مسألة حذف أبيات من قصيدة أو سقوط قصيدة من ديوان، وهو الأولى أن يبحث فيه لإعادة الفرع إلى الأصل والمجهول الساقط إلى المعلوم الثابت.

مع العلم أن الذاكرة لا تزيد بل تنقص والتاريخ لا يولد قصائد جديدة بل يفقد رواية بعض القصائد.

فقد شك داود سلوم في هاشميات الكميت وأثبتها له شوقي ضيف.

وقال عبد العزيز عتيق أن لامية أبي طالب زيد فيها وطوّلت، وقال محمد التونجي أن اللامية نفسها سقط منها بضعة أبيات!؟

لهذا أوردنا هذا التمهيد لنقول أن قصيدة ابن زيدون الهاشمية هي من شعر ابن زيدون، وإن لم تظهر في أي طبعة من الديوان، وقد عني المستشرقون بشعر ابن زيدون، وظهرت هذه القصيدة في الطبعات الأوروبية، قبل أن تعمل يد الحذف فيها، وللشاعر أبيات يذكر معه كلما ذكر، نقتطف منها بعض ما أورده ابن نما الحلي في خاتمة كتابه عن مقتل الحسين (ع) المسمى بـ "مثير الأحزان"، وهي غاية في الرقة والسلاسة والوجد والحنين:

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا ... أن طالما غير النأي المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً ... منكم، ولا انصرفت عنكم أمانينا

نبذة عن حياة الشاعر وفنه

هو أحمد بن عبد الله ابن زيدون، وصفته دائرة المعارف الإسلامية، بأنه أحد مشاهير الشعراء المسلمين في الأندلس، وزير أمراء إشبيلية، ينتسب إلى بني مخزوم، ولد في

قرطبة عام ٣٩٤هـ، وتوفي أبوه وهو بعد يافع لم يبلغ الحلم، ولكن أوصياءه أحضروا له أفضل الشيوخ والمؤدبين، وسرعان ما بزّ زملاءه التلاميذ، ولما بلغ العشرين من عمره نظم القصائد التي كانت سبباً في ذيوع صيته. ولشهرته الأدبية وبروزه في بلاط المعتضد والمعتمد، ثار عليه الحساد، ولكنه ظل محط إعجاب أهل قرطبة الذين افتخروا بانتسابه إليهم، وكانت وفاته سنة ٤٦٣هـ ودفن في إشبيلية.

وخير ما يستدل فيه على نبوغ شاعرنا قصيدته التي سنوردها بعد قليل، وقول ابن بسام صاحب "الذخيرة" في حق الشاعر: "كان غاية منثور ومنظوم، وخاتمة شعراء بني مخزوم، أخذ من حر الأيام حراً، وفاق الأنام طراً، وصرّف السلطان نفعاً وضراً، ووسع البيان نظماً ونثراً، إلى أدب ليس للبحر تدفقه، ولا للبدر تألقه، وشعر ليس للسحر بيانه، ولا للنجوم الزاهرة اقترانه، وحظ من النثر غريب المباني، شعري الألفاظ والمعاني، وكان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة، وبرع أدبه وجاد شعره، وعلا شأنه، وانطلق لسانه، ثم انتقل عن قرطبة إلى المعتضد عباد صاحب إشبيلية عام ٤٤١هـ، فجعله من خواصه!

قبل أن تقرأ القصيدة، تخيل أنك تستمع إلى البحتري في ديباجته المشرقة، وكلماته المتناغمة، والمتنبي في متانة سبكه، وزخم لفظه، وقوة وصفه، هكذا سوف يطالعك ابن زيدون في هاشميته أو في قصيدته الحكمية، كما يرى الناقد الدكتور عمر الطباع في مقدمة ديوانه.

القصيدة الرائية للشاعر الأندلسي "ابن زيدون"

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ... عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حربٌ وإن أبدى مسالمة ... والبيض والسود مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس تأخذه ... يد الضراب وبين الصارم الذكر
فلا تغرنك من دنياك نومتها ... فما صناعة عينيها سوى السهر
وما الليالي أقال الله عثرتنا ... من الليالي وخانتنا يد الغير
في كل حين لنا في كل جارحة ... منا جراح وإن زاغت عن البصر
تسر بالشيء لكن كي تغر به ... كالأيم ثار إلى الجاني من الزهر
كم دولة قد مضت والنصر يخدمها ... لم تبق منها وسل ذكراك من خبر
وروّعت كل مأمون ومؤتمن ... وأسلمت كل منصور ومنتصر
ومزقت جعفراً بالبيض واختلست ... من غيله حمزة الظلام للجزر

وأجزرت سيف أشقاها أبا حسن	وأمكنت من حسين راحتي شمر
وليتها إذ وفدت عمرواً بخارجة	فدت علياً بمن شاءت من البشر
وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن	أتت بمعضلة الألباب والفكر
وأردت ابن زياد بالحسين فلم	يبوء بشسع له قد طاح أو ظفر
وأحرقت شلو زيد بعدما احترقت	عليه وجداً قلوب الآي والسور
وأسبلت دمعة الروح الأمين على	دم بفخ لآل المصطفى هَدَر

يستهل الشاعر قصيدته بتصريع بليغ في إيجازه، مؤثر في إيقاعه، فالدهر يفجع حتى لا يبقى من الوجود إلا أثراً بعد عين، فأي معنى للبكاء على أشباح وصور وأطلال بالية:

وهو ينتقل في الأبيات السبعة الأولى بين الخبر والإنشاء، محذراً عاقبة الغفلة، فما طول عيش بدائم، وما سالم عما قليل بسالم، كما قال بشار، فالدهر يقظان وإن كانت العين في سنة وغفلة، وهو يطابق في ألفاظه بين البيض والسمر من السيوف والرماح والبيض والسمر من النساء، وهو يجانس بين الجوارح والجراح، ليصل المعنى في أخصر سبيل وأعذب أسلوب، وناهيك بتلك الجملة المعترضة ـ أقال الله عثرتنا ـ كم تؤدي من معنى.

أما البيت الثامن فهو الذي يوفي بك على لب المعنى وجوهر المضمون، تلك العلاقة القائمة بين الربح والخسران، بين الأسى والسرور، فلا تنال نعمة إلا بفقد أخرى، كما قال سيد البلغاء علي (ع)، كما أن في هذا البيت صدى يدل على صدق القصيدة وصحة نسبتها إلى ابن زيدون، فقد اشتهرت في تلك الآونة، ما يسمى برثاء الممالك والبلدان، عند تساقطها وتداعيها بعد انحسار القوة المركزية في دولة الأندلس، فلكل شيء إذا ما تم نقصان، فلا يغرَّ بطيب العيش إنسان، كما قال أبو البقاء الرندي، أما شاعرنا فيقول:

كم دولة قد مضت والنصر يخدمها	لم تبق منها وسل ذكراك من خبر

وهو رجع أحداث ذلك العصر، حيث تهاوت ممالك، وسقطت إمارات، ودالت دول، فنشأ شعر البكاء والتفجع على البلدان، شبيه وقوف الشاعر الجاهلي على الأطلال، إلا أن تلك دارسة وهذه أطلال عامرة.

أما في البيت العاشر، فيشير إلى ملوك ألوت بهم يد الدهر كالمأمون والمؤتمن، والمنصور والمنتصر، بعض منهم عرفتهم إمارات الشرق، وآخرون برزوا في إمارات الغرب بالأندلس.

فهذا جعفر الطيار شهيد مؤتة، وذاك حمزة أسد الله شهيد أحد، هذه الدنيا التي مزقت واختلست وروعت وأجزرت ما شاءت من أعيان الرجال وساداتهم، ولكنها لم تكن عادلة

في يوم من الأيام، فهي ما فدت علياً بأي من البشر، في حين أنها فدت عمرو بن العاص بخارجة الذي حاول اغتيال صاحبه فأفلت من يديه ووقع هو في قبضة عدوه.

ويعجب ابن زيدون لهذه الدنيا التي تفدي عمرواً بخارجة لم تفد علياً ولا حسناً ولا حسيناً ولا زيداً، بواحد من هؤلاء كابن هند، وهشام و.. و.. غيرهم من هم أولى بأن يصول عليهم الدهر، ويدّخر الأحرار والأبرار لما هو أسمى وأنبل.

أما زيد فقد حرق بعد أن صلب حتى قيل أن الفاختة، وهي طير جارح عششت في صدره وشلوه المصلوب الذي حرق وذري في مياه النهر، أما حسين قتيل موقعة "فخ" فقد أجرى مدمع جده المصطفى (ص) لو كان حياً، هذا الثائر في عهد هارون الرشيد على المظالم، والذي قتل هو وأنصاره في موضع بين مكة والمدينة يقال له فخ، ولم ينج إلا واحد هو إدريس الذي فر إلى مصر ثم إلى المغرب، حيث أسس دولة الأدارسة.

فمن رحم الدولة المنهزمة في موقعة الزاب، تولدت دولة أندلسية، ومن بقايا السيف في موقعة فخ تولدت دولة الأدارسة العلوية الحسنية.

والشعر فن كالرسم والنحت والتصوير والموسيقى، يستعصي على الشارح، فلا بد أن يقرأ رسلاً، ويتذوق إيحاءً وجرساً.

فلا يستنفذ النقد للأثر روائع الإبداع في الخيال والصور.

كان ابن زيدون شاعراً فحلاً في أي غرض شاء، في الغزل والحنين (أضحى التنائي رائعته المشهورة) أم في الشكوى وعتاب الدهر والحكمة والتفجع على الدول والممالك أو رثاء أهل بيت النبي (ع)! فقصائده لوحات فنية ترسم المعنى بريشة هي الكلمة النابضة بالخيال، العابقة بالطيب، الرافلة بحلل الأرجوان، الخافقة بنبض القلب، والمنبعثة من صدق الحس والوجدان.